مجلة العلوم القانونية و الاجتماعية

Journal of legal and social studies

Issn: 2507-7333

Eissn: 2676-1742

شبكة العلاقات الاجتماعية عند مالك بن نبي وعلاقتها بالمركب الحضاري

The network of social relations with Malik bin Nabi and its relationship to the civilizational complex

فازية بوثلجة *

جامعة الجزائر 02- ابو القاسم سعد الله ، (الجزائر)،

faziabouteldja768@gmail.com

تاريخ ارسال المقال:2022/09/10	تاريخ القبول: 2022/10/15	تاريخ النشر: 2022/12/01

*المؤلف المرسل

الملخص:

إن الهدف من تحليل مراحل الحضارة عند "مالك بن نبي" هو إبراز الدور التاريخي الذي تقدمه كل مرحلة بالنسبة للمرحلة الموالية .حيث يعتبر "مالك بن نبي" من بين الأوائل اللذين اكتشفوا الدورية الحضارية بما تحتويه من نقطة البداية ثم الصعود إلى القمة ثم الأفول وهو المدخل الذي نستطيع من خلاله فهم دراسة بن نبي للحضارة وللإجابة عن إشكالية بحثنا اعتمدنا المنهج التحليلي الإستنتاجي، وذلك بتحليل أهم أفكار مالك بن نبي المتعلقة بموضوع البحث، وقد حاولنا قدر الإمكان استخلاص النتائج المترتبة عن هذا التحليل.

وقد توصلنا من خلال استعراضنا لفكر مالك بن نبي أن شبكة العلاقات الإجتماعيّة روح المجتمع الّتي توحِّد عناصره ؛ فهي المركّب الّذي يُحدِث الإنسجام الدّاخليّ بين عناصر البناء الثّقافيّ (عالم الأشخاص، وعالم الأفكار وعالم الأشياء)، فوجود شبكة قويّة من العلاقات في عالم الأشخاص، يمنح فاعليةً أكبر لنشاط عالم الأفكار من أجل استغلال أحسن لعالم الأشياء

الكلمات المفتاحية:شبكة العلاقات الاجتماعية ؛ المركب الحضاري ؛ مالك بن نبي .

Abstract :

The aim of analyzing the stages of civilization according to "Malik bin Nabi" is to highlight the historical role that each stage presents in relation to the next stage. Malik bin Nabi is considered among the first to discover the civilizational periodical with its contents from the starting point, then ascent to the top, and then the decline, which is the entrance that Through which we can understand Bennabi's study of civilization and to answer the problematic of our research, we have adopted the deductive analytical approach, by analyzing the most important ideas of Malik Bennabi related to the topic of research, and we have tried as much as possible to derive the results of this analysis

Through our review of Malik Bennabi's thought, we concluded that the network of social relations is the spirit of society that unites its elements; It is the compound that brings about internal harmony between the elements of the cultural building (the world of people, the world of ideas and the world of things)

Keywords:. network of social relations ; civilized complex ; Malik bin Nabi.

مقدّمة:

قبل الحديث عن إشكالية الحضارة في فكر "مالك بن نبي" علينا أن نتمكّن من حصر القالب الفكري من فكر "مالك بن نبي"، فهل هو مصلح اجتماعي يتصدر قائمة المصلحين الذين وعوا أسباب الفساد في مجتمعهم فأخضعوه للتشخيص بمنهج المصلحين؟ أم أنّه عالم اجتماعي يأتي في طليعة علماء من "ابن خلدون" إلى "دوركايم"، أم أنّه فيلسوف التاريخ لأنّه تخصص في تقويم أبعاد حضارة مجتمعه مثل "هيجل"، "تومبي"، و"شبنجلر"، ولمعرفة ذلك اعتمدنا على مجموعة من الفرضيات والتي تتمثل في :

– تشخيص نظرية هامة وهي تحليل معادلة العلاقات الإجتماعية لأنّها تمثل مفتاح الدخول إلى فكر "مالك بن نبي" الحضاري مستلهماً ذلك من عصبية "ابن خلدون" المجسّدة للتعاقب الدوري مؤكّداً خطوة هامة وهي الموازاة بين المنهج الأفقي في شبكة العلاقات الاجتماعية المتينة التي تربط الإنسان بين مجتمعه. وقد اتبعنا من خلال استعراضنا لهذا المقال العلمي، المنهج على المنهج الاستقرائي الاستنتاجي (استقراء الواقع الذي كان يمثل مرحلة من مراح الأمة الإسلامية خلال فترة من الزمن .

ولعل هدفنا من عرض هذا المقال العلمي هو إظهار وتوضيح المعنى الحقيقي لمعنى شبكة العلاقات الإجتماعية ومدى أهميتها في تمتين وترصيص البنية الاجتماعية، دون أن ننسي الدور الفعال الذي تلعبه الفكرة الدينية في خلق هذا التماسك بين أفراد للمجتمع الواحد وعلى ضوء ما ورد في ما ذكرناه سابقاً أسعى من خلال هذه الورقة البحثية الإجابة على عن التساؤل الأتي:

كيف ربط مالك بن نبي المركب الحضاري بشبكة العلاقات الاجتماعية؟ وما هي العلاقة الموجودة بين المقومين (الحضاري والاجتماعي)

المبحث الأول: الدورة الحضارية عند مالك بن نبي وعلاقتها بالفكرة الدينية":

نحاول في هذا المبحث أن نقف على اتجاه حركة الحضارة الإسلامية في صعودها وأفولها وزوالها، بسبب ذهاب الروح إلى حب السلطة والنزعة القبلية وأن الفكرة التي غرست بذرتها في التاريخ هي الفكرة الدينية"وهي التي تمثل أساس تقوية المجتمع

المطلب الأول: الدورة الحضارية عند "مالك بن نبي

.إنّ الشيء الذي يميّز عظمة أبحاث "ابن نبي" فيما يخص المفهوم الحقيقي لمعنى الحضارة هو سعة اطلاعه لحضارة الغرب وإبراز موقفه النقدي من مختلف أبحاثهم وتفسيراتهم لنشأة الحضارة وعوامل التحضر، وفي الوقت نفسه نجده قد أثنى على الفيلسوف العظيم والعلامة الكبير "ابن خلدون" باعتباره أوّل من صاغ الحادثة التاريخية لمنطق محكم واكتشف ما يسمي بقانون الدورة التاريخية [1]، ففي نظر "ابن نبي" فقد شهد القرن التاسع عشر ظهور أوّل تفسير للواقعة الإجتماعية بربطها بظاهرة أخرى، حيث يرى "كارل ماركس"karl marx أنّ كل اكتمال تاريخي لا يكون إلاّ نتيجة الضرورات المادية وحاجات الإنسان الأساسية، فالحاجة والفنّ الصناعي يمثلان في نظر "ماركس" مراكز التقاطب لقوى الإنتاج، وهي المراكز التي تحدّد العلاقات الإجتماعية الخاصة بحضارة معينة.غير أنّ هذا التفسير لم يصمد أمام "مالك بن نبي" الذي بيّن وأثبت بأنّ هناك حضارات كحضارات أمريكا

السـابقة على العهد الكولومبي وكذلك الحضـارة الرومانية التي تلاشـت دون ظهور أيّ تغيّر في طبيعة الحاجات ووسـائل الإنتاج وهكذا نجد أنّ التفسـير الماركسـي للوقائع اتّخذ نقطة انطلاقه من حتمية مادية معروفة بالمادية التاريخية أي من عملية ميكانيكية لا من إرادة التخطيط الحضاري، ويرى "بن نبي3 أن الدياليكتيك الماركسية تقيم السـيرورة التاريخية كدورة مغلقة فيها نوع من التفسـير الضـيّق، والواقع عندنا. أنّ هذه "الواقعية " أخرجت " العقلانية " التاريخية من المأزق ولم تخرج الإنسـانية من المآزق.خصـوصـاً وأنّ دائرة التنبؤات التاريخية لماركس نجحت مع شـعوب " العقل " (كالشـعب السـويدي) ولم تنجح مع شـعوب أخرى عبر قارات العالم المختلفة.وهو الإنتقاد الثاني الذي يقدّمه "بن نبي" للماركسية[2]: ".

أمّا في القرن العشـرين فقد ظهرت مناهج أخرى لتفسـير النمو الحضـاري غير أنّها مناهج انحصـرت في حاجة الإنسـان المادية ووسـائل الإنتاج، حيث اعتبر "شـبنجلر" الحضـارة أنّها ثمرة لعبقرية خاصـة يمتاز بها عصـر معين ثم سـرعان ما تزول، وإلى نفس الفكرة تقريباً ذهب الألماني (فرانز شـوبرت walter schubart [3] باعتباره أنّ الحضـارة نتاج عبقرية عصـر معيّن وليس باعتبارها نتاج عبقرية جنس معيّن، حيث بيّن "شـوبرت" في كتابه "أوربا وروح الشرق" أنّ لكلّ عصر عبقريته الخاصة أو روحه الكلّي الذي يسود ذلك العصر، أمّا المؤرّخ الإنجليزي الكبير " أرلوند توينبي" فقد فسّـر الحضـارة بإرجاعها إلى العامل الجغرافي الذي يلعب دوراً أسـاسـياً فيها ما كان يدعوه بالتحدي وهو المذهب الذي يفسّر الحضارة بـــ "رد" معين يقوم به أحد الشعوب أو الأجناس لمواجهة تحد معين غير أنّنا لا نرى في تكوين الحضارة العامل الجغرافي أو المناخي في شكل "تحدي" ولا في العامل الإقتصادي المتمثل في الحاجة والوسيلة لأنّنا لو قمنا بعملية التحليل التاريخي يمكننا أن نشاهد قانون ظاهرة الحضارة، خصوصاً وأنّنا نعرف مسبقاً أنّ حضارة معيّنة تمرّ بمرحلة الميلاد ثمّ الأوج وأخيراً الأفول والمنحنى البياني يبدأ بالضرورة من النقطة الأولى في خط صاعد ليصل إلى النقطة الثانية في خط نازل الميلاد ثم الاوج وأخيراً الأفول [4]وبين الطوريين الأولين يوجد بالضرورة توازي معين يشير إلى تعاكس في الظاهرة، فطور الأفول النازل هو عكس طور النهضة الصاعد، وبين الطورين يوجد بالضرورة إكتمال معين هو طور إنتشار الحضارة وتوسيعها وبهذا يكون المفكر "مالك بن نبي" قد قلب صفحة جديدة في سنه للأسس الأولى للحركة التاريخية. لذا فإنه أقام فكرة التاريخ في حركيتها في ضوء القرآن الكريم بداية من " الفعالية " " الوعد والوعيد "، مروراً برسم العوالم الأساسية لهذه الحركة التاريخية في الحضارة، والمتمثلة في النشاط المشترك لكل من " عالم الأشخاص " " وعالم الأفكار " وعالم " الأشياء ".

وقد حاول مالك تطبيق هذا الرسم البياني على حركة التاريخ الإسلامي، وذلك للوقوف على اتجاه حركة الحضارة الإسلامية في صعودها وهبوطها، وذلك ليتسنى للمسلم أن يعرف تاريخه كقيم ومفاهيم، حيث قبل الشروع في دورة من الدورات أو عند بدايتها يكون الإنسان في حالة سابقة للحضارة.

أمّا في نهاية الدورة فإنّ الإنسان يكون قد تفسخ حضارياً وسلبت منه الحضارة تماماً، فيدخل في عهد ما بعد الحضارة[5]، وهي مرحلة الانحطاط حيث لم يعد الإنسان والتراب والوقت عوامل حضارة بل عناصر خامدة غير متفاعلة، حيث أنّ نقطة الصفر في الرسم البياني التي تسجل الحالة السابقة على الحضارة تمثل بداية ظهور تركيب

العناصر الثلاثة(الإنسان والتراب والوقت)، ممّا يؤدي إلى ميلاد مجتمع معين ولكن عالم الأشخاص والأشياء لم يوجد بعد.

أما عالم الأفكار فإنّه يحتوي على بذرة إمكانياته "كما تحتوي النطفة كل العناصر العضوية والنفسية المهمة في تركيب الكائن" وبهذا يمكن التقرير "أنَ الفكرة التي غرست بذرتها في التاريخ هي فكرة دينية"أي أنّ الدين هو أساس بناء المجتمع وهو يخلق نظاماً اجتماعياً للأفراد، فكلّما قويت العلاقة الدينية بين نقطة الصفر والنقطة (أ) فإنّ درجة الفراغ الاجتماعي تقل وهي الهدف والمثل الأعلى لجميع الشرائع التي تحاول جاهدة سد أي فراغ اجتماعي[6]، وفي النقطة(أ) توقفت النهضة الإسلامية حينما حدث أول انفصال في التاريخ الإسلامي وذلك مع بدء معركة صفين (38هـ) بسبب ذهاب الروح إلى حب السلطة والنزعة القبلية أي أنّ الروح فقدت نفوذها على الغرائز بالتدريج ومنذ ذلك الانفصال فقد العالم الإسلامي قوته وتوازنه، غير أنّ الفرد المسلم ظل متمسكاً في داخله بدينه الإسلامي وعقيدته حتى سقوط دولة الموحدين، أمّا النقطة '(ب') والتي تمثل نقطة الانكسار في منحنى التطور التاريخي وهي تتمثل في انقلاب القيّم الأخلاقية داخل حضارة معينة، والتي تتمثل في فقدان الإنسان المتحضر لهمّته وأخلاقه الحضارية، فيعجز عن تطبيق إبداعه ومواهبه على التراب والوقت ممّا يؤدي إلى تفكيك الحياة الاجتماعية لتحلّ مكانها الحياة البدائية، وقد بدأت هذه المرحلة في التاريخ الإسلامي بسقوط دولة الموحدين في الأندلس الذي يمثل سقوط الحضارة الإسلامية الخالدة، فبدأ تاريخ الإنحطاط وكان ذلك في عهد "ابن خلدون".[7]

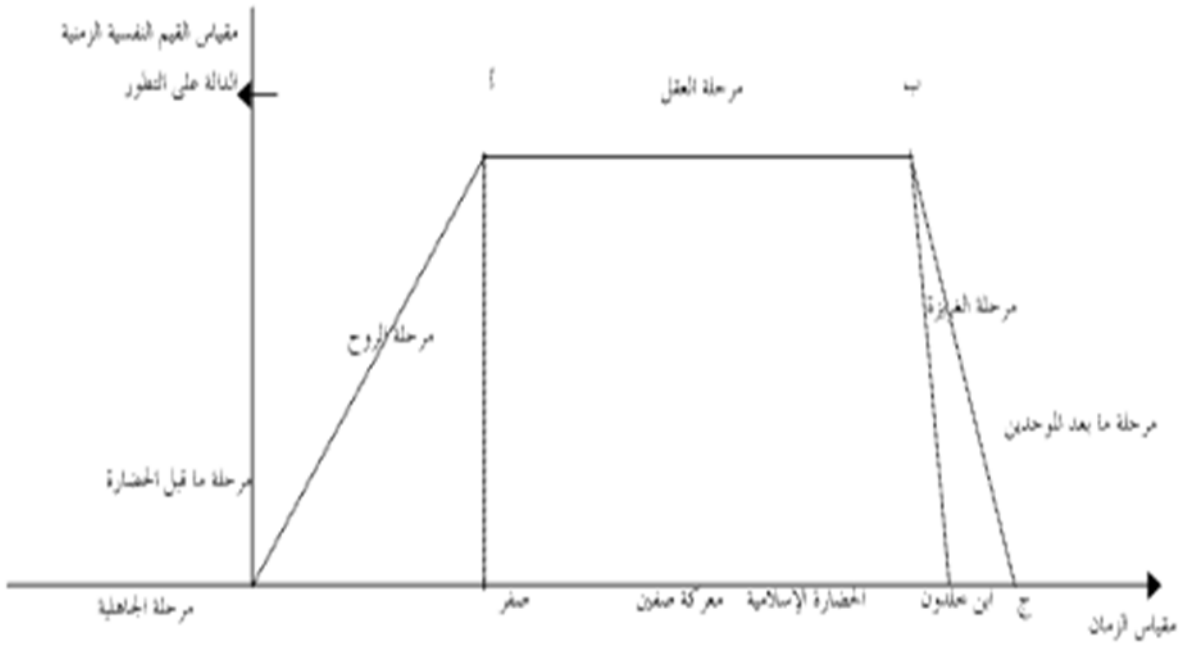

المصدر: من كتاب شروط النهضة للكاتب مالك بن نبي.

نستنتج من خلال الرسم أنّ لدورة الحضارة ثلاثة مراحل مختلفة فالأولى تبدأ بنقطة الصفر التي تمثل إنسان الفطرة، فالمرحلة الأولى هي مرحلة الروح (من نقطة الصفر إلى النقطة (أ) وهي تتمثل في علاقات

اجتماعية قوية ومتينة، توحي بعبارة من القرآن "البنيان المرصوص" كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾[8] .

كما أنّ الفرد في هذه المرحلة يكون في أحسن ظروفه وفاعليته الاجتماعية أمّا في المرحلة الثانية (من النقطة أ إلى النقطة ب) فإنّ العلاقات الاجتماعية لا تزال قوية ولكن قد ظهر عليها بعض الشوائب والنقص، فالمجتمع يواصل نموّه ولكن ليست كلّ قواه في نطاق الحركة، .فلم يعد الفرد المسلم يباشر وظيفته الإجتماعية، يعمل بكامل طاقته لأنَ جانباً من الطاقة مضى إلى السكون، أمّا المرحلة الثالثة (من النقطة ب إلى النقطة ج) فإنّ الغرائز تتفكك وتسود الفردية تبعاً لتحرّر غرائز الأفراد ممّا يؤدي إلى انهيار العلاقات الإجتماعية فيختّل نظام الطاقة الحيوي وهو ما يسمى بعصر الإنحطاط وهي الفترة التي هيّأ للعالم الإسلامي الظروف الملائمة للقابلية للاستعمار ثم دخول الاستعمار حقيقة[9].

-تطور الحضارة الإسلامية

في هذا العنصر سنتعرف على خصوصيات كل مرحلة وماذا تعني كل واحدة منها ؟كما نحاول أن نحدّد العلاقة التي تجمع هذه المراحل ببعضها البعض في تفسير الحركة التاريخية ولقد قسّم "مالك بن نبي" الحضارة إلى ثلاثة مراحل هي:

المرحلة الأولى:وهي المرحلة التي تبدأ من غار حراء إلى واقعة صفين (سنة 38هجري) وهي المرحلة الجوهرية التي تركبت فيها العناصر الأساسية للحضارة الإسلامية لأنّها حتى وإن كانت دينية إلاّ وأنّها يطغى عليها الجانب الروحي ففي هذه الحقبة ظلّت روح المؤمن هي العامل النفسي الرئيسي لذا سميت هذه المرحلة بمرحلة الروح [10]، وكان الإنسان في هذه المرحلة يمثل نقطة الإنطلاق متسما بالبساطة الفطرية، فهو إنسان طبيعي (Homonatura) يحيا حياة راكدة خاوية ثم تأتي الفكرة الدينية المركبة للعناصر الثلاثة (الإنسان، التراب، الوقت) فتملأ فراغه فتندفع بذلك عجلة التاريخ وتشرع في دورتها وتكون للإنسان روح كلّه إيمان وأمل وسموّ نحو الغاية التي رسمتها له الفكرة الدينية التي هي تمثيلا أولياً " لإشعاع الفكرة الدينية تلك التي تتمكن من النفوس فتبنيها بناء " مرصوصا "، كما كان ذلك في عهد الرسول (ص) وجماعته من الصحابة والخلفاء الراشدين، إذ أنَه في ذلك العهد كانت الروح التي بدأت في غار حراء، قد فعلت فعلتها في النفوس. فكنّا نلاحظ أنّه وبمجرد ما إن نزلت آيات الخمر مثلا.

فإنّ الصحابة ومن تابعهم نهوا عن شربه حتى أنّ واحدا كعمر ابن الخطاب –رضي الله عنه (والذي كان يتعاطاه في الجاهلية) تخلى عنها بكل سهولة بمجرد أن أعلن إسلامه-يأتي"مالك بن نبي" بأمثلة عديدة لفعل القرآن فيها لا نرى ضرورة لسردها كلّها –وبالمقابل نجد كلا من الولايات المتحدة الأمريكية والإتحاد السوفياتي أصدرتا مرسومين يقضيان بمنع تعاطي" الخمر "ثم تراجعا عنه لاحقاً، حتى أنّ الرئيس الأمريكي في 1963 تراجع -بعد شهر من إصداره للمرسوم- عن قانون المنع هذا بسبب هو أنّ المجتمع الأمريكي لم يكن ليجد الروح المربية للنّفس كما أقامها القرآن الكريم، في قبائل قريش، وهذه هي المرحلة الأولى من التحضر، وسماه "مالك بن نبي" "بمرحلة الروح"، لأنَ الروح هنا تكون مهيمنة على الغرائز ومتحكمة في العقول في بداية التحضر، ويكون المجتمع والفرد

متماسكًا كلما زادت الطاقة الدينية، حيث رأى "مالك بن نبي" أنّ هذه المرحلة ضرورية لأي إنسان كان في أيّ زمان أو مكان[11].

المرحلة الثانية : وهي المرحلة الدالة على أفول الروح وهذا بعدما دخل العالم الإسلامي في حروب وفتن لا مخرج منها مما تسببت في ظهور ظاهرة التشيع التي لا يزال أثارها موجودا حتى يومنا هذا ونتيجة لهذه الصراعات، فقد دخل الإنسان المسلم في مرحلة ثانية وهي مرحلة العقل أين يشهد صراع داخلي بين الغرائز والعقل حيث تساوى فيها أسباب السمو الروحي وجاذبية الغرائز، ومن الناحية التاريخية تمثل هذه المرحلة ظهور العصر العباسي الذي عُرف بالعصر الذهبي للحضارة الإسلامية حيث جمع لنا هذا العصر قائمة بأسماء علماء ومفكرين شهد لهم التاريخ بأنّهم أعلام عصرهم ومن ذلك أمثال الكندي والفارابي وابن سينا والغزالي(هؤلاء في الفكر) وابن حفصين وابن النفيس والرازي وجابربن حيان والخوارزمي (في العلوم.)، وقد شهدت هذه المرحلة توسعاً فوق الأرض وبدأ العلم ينتشر وهذا بفضل أساتذة سطعت أسماؤهم في جوّ المعرفة ومن الناحية الجغرافية فإن الحضارة الإسلامية في هذه المرحلة قد خرجت من عمق النفوس إلى سطح الأرض التي امتدت من شاطئ الأطلنطي إلى حدود الصين كما عبّرت عنه كبريات الجوامع والمنارات والقصور وغيرها التي أنشئت هنا وهناك في كلّ من بغداد والقاهرة ودمشق والأندلس وتركيا وغيرهم..

نستنتج إذن أنّ تطور الحضارة عند "بن نبي" مرهونة بتطور الإنسان وهي عبارة عن حلقات متصلة إذ تبدأ الحلقة الأولى بظهور فكرة دينية، ثم يبدأ أفولها وهذا بتغليب جاذبية الأرض عليها بعد أن تفقد الروح ثم يظهر العقل ولذلك سميت هذه المرحلة بمرحلة العقل.

المرحلة الثالثة: عندما تنكمش تأثيرات الروح والعقل يعود الإنسان إلى مستوى الحياة البدائية وهو ما يمثل مرحلة الغرائز الناتج من المرحلتين السابقتين حيث يدخل الإنسان (في منظور "مالك بن نبي") مرحلة جديدة، حيث تسيطر الغرائز في هذه المرحلة على العقل والروح فينحط الإنسان إلى حضيض الحيوان نتيجة التدرج في السيطرة من الروح إلى العقل ثم الغرائز في بناء الإنسان، وتدخل نتيجة لهذا الحضارة الإنسانية في مرحلة جديدة من التخلف هو حال أغلب المجتمعات العربية والإسلامية اليوم –ويكون المجتمع غير متماسك ميالاً إلى الماضي والقابلية للاستعمار والأصح كما سماه "الاستدمار"، إنّ المجتمع في مرحلة الغريزة من الدورة الحضارية، فقد كل ما يربط أواصره: بحيث أصبحت صالونات الآداب (بالأندلس) مراقص وملاهي بدعوى التجديد في التطور أو التقدم الحضاري.كما بقيت " المقدمة "لابن خلدون حروفاً ميتة، وقد كانت مكتبات القيروان وفاس وغيرها، تزخر بالكتب النادرة دون أن تجد منشغلاً بها أو حتى متصفحا لها).

إن مرحلة الغريزة في الحضارة هي الطور الحضاري الذي ينبئ عن مجتمع سماه "مالك بن نبي" بمجتمع ما بعد الحضارة، وهو ممثل أيضاً على محور الزمن من وقت سقوط دولة الموحدين بالمغرب العربي حتى عام 1868 ومنه رأى ""مالك بن نبي"" ضرورة أن تحل "الفاعلية الإيجابية" محل هذه "القابلية" لتربط الفكرة بالعمل، ويقوم النهوض ويخرج المجتمع من "حضارة شيئية" إلى"حضارة إنتاجية" لإعادة "الفكرة الدينية" ووظيفتها الاجتماعية في الحياة العملية، ويخرج الإنسان من دائرة "الفجور والجهل والفقر والظلم...إلى دائرة التقوى والعلم والاكتساب ونصرة

الحق فتكون إنسانية الإنسان وإجتماعية المجتمع."ومن هنا نكتشف أنّ "الإنسان" أهم عنصر من عناصر الحضارة، ولا يمكننا أن ننفي علاقته المباشرة "بالتراب" و"الوقت"كعنصران ضروريان لحركة الإنسان في التاريخ وعدم إدراك هذه الحركة في علاقتها بالزمان والمكان يجعل صعوبة في تشخيص أسباب أفول الحضارة، وأيضا في إيجاد حلول ومناهج لجهل مكانة الأمة من التطور الحضاري[12].

المطلب الثاني–دور شبكة العلاقات الاجتماعيّة في تقوية البناء الحضاريّ عند "مالك بن نبي":

لقد أراد "مالك بن نبي" توضيح معالم الصّلة القائمة بين النّشاط الاجتماعيّ للإنسان، ضمن عالم الأفكار والأشخاص والأشياء، وبين نشاطه فيما يخصّ استغلال مقاييس التّراب والزّمن في التّنمية، هذه الصّلة تتّضح أكثر من خلال التّفاعلات داخل شبكة العلاقات الاجتماعيّة، إستمدّ هذا البحث مادّته من كتابات "مالك بن نبي" وتحليلاته، على اعتبار أنّه أَولى إهتماماً خاصّا لهذه المشكلة، وجاءت هذه التّحليلات خلاصة معايشة لواقع المسلمين، امتزجت بدراسة عميقة لتاريخ الأمّة عبر مختلف مراحله، بنجاحاته وانتكاساته، إبّان ميلاد الجماعة المسلمة وإلى غاية تصدّعها، وكذا المحاولات الّتي كرّست من أجل لمّ شملها وتتحدّد أهمّية موضوع شبكة العلاقات الاجتماعية من خلال مستويين .

1..المستوى المعرفيّ:

تكمن أهمّية الموضوع في أنّه يتطرّق إلى إشكال عالجه "مالك بن نبي" في كتاباته، ألا وهو معادلة العلاقات الاجتماعيّة، ومدى تأثيرها على الأداء الوظيفيّ لعوالم البناء الثّقافيّ: عالم الأفكار، عالم الأشخاص وعالم الأشياء، وبالتّالي تأثيرها على مسيرة الإنسان والزّمن والتّراب باتّجاه البناء والتّنمية، الأمر الذي يؤهّل هذا البحث ليكون خطوة لفهم إشكالية الحضارة عند ابن نبيّ، خاصّة وأنّه حلّل التّجربة الحضاريّة الإسلاميّة في جميع مراحلها: الولادة، النّمو، والأفول، واستفاد علميّاً وعمليّاً من التّجربة الغربيّة.

2. المستوى الواقعيّ:

يستمدّ الموضوع أهمّيته من واقع الأحداث على السّاحة العربيّة، بالخصوص تلك الإنقسامات الخطيرة التي إستهدفت البنية الدّاخليّة للمجتمع، سواء على مستوى القاعدة الشّعبيّة أم على مستوى السّلطة، أو حتى بين القاعدة والسّلطة، وقد تسبّبت هذه الإنقسامات في حالة من اللاتجانس الوظيفيّ في هذه المستويات، أثّر بشكل سلبيّ وخطير على قضايانا المصيرية، التي تتراجع المواقف إزاءها نحو الهروب إلى الوراء، وقد حاول "مالك بن نبي" إبراز المكانة التي تحتلُّها شبكة العلاقات الاجتماعيّة بالنّسبة لعناصر البناء الحضاريّ (الإنسان، الزّمن والتّراب)، ومدى تأثيرها على الأداء الوظيفيّ لعوالم البناء الثّقافيّ (عالم الأشخاص، عالم الأفكار وعالم الأشياء)، وذلك من خلال **رصد** مجموعة من المظاهر، عبّرت في جوهرها عن حالة نموٍّ في كيان الحضارة على المستوى المادّيّ وعلى المستوى الاجتماعيّ، أو عبّرت عن حالة تراجعٍ نحو اللاّحضارة على ذات المستويين، كما يهدف إلى تهيئة أرضيّة صلبة لحوار الحضارات والأديان من الجانب الإسلامي وذلك لأنَ المنطلق الأساسي في هذا الحوار يكون بالتّأسيس لحوار داخليّ، ومن ثمّة التّوجّه نحو الآخر بشبكة متينة تعكس تناغماً بين الفكرة والكلمة، خاصّة في ظلّ تصاعد المدّ العدائيّ للإسلام، لأنّ الدّعوة التي تحمل شعار "حوار الأديان والحضارات" تصير خاوية

المحتوى إذا غضّ الطّرف عن حوار الأنا أو الحوار الدّاخليّ، الذي يتمّ حاليّا بلغة القتل والسّلاح ويهدف "مالك بن نبي" من خلال إستعراضه لأهمية الشبكة الإجتماعية إلى التّحسيس بواقع علاقاتنا التي تتّجه أساساً نحو التّمزّق، الذي ينتج عنه تفكّكٌ في بنائنا الاجتماعيّ، ممّا يعني التّراجع أو النّهاية بالنّسبة لمحاولاتنا التّنمويّة، لأنّ العلاقات الاجتماعيّة صارت رهينة حساباتٍ فرديّةٍ ضيّقةٍ، بسبب إنهيار القيم الإنسانية وإنتشار الأنانية والمصلحة بين الأفراد والمجتمع الذي يصل إلى هذه الدّرجة ينهار داخليّا، ثمّلا يلبث أن ينهار خارجيّاً، لذلك فإنّ هذا العمل جاء ليلحّ على خطورة القضيّة بالنّسبة لحاضر علاقاتنا ومستقبلها، ومصير امتنا، فإذا كان الإحساس بالمشكلة أول مرحلة في البحث عن الحلّ، فإنّ التّحسيس بالمشكلة هو أوّل مراحل تطبيقه، خاصّة إذا استندت العمليّة التّحسيسيّة للواقع الذي يعتبر منبع المشكلات، وموطن الحلول في آن واحد[13]. وهنا يكمن لبّ العلاقة بين البناء الحضاريّ، وشبكة العلاقات الاجتماعيّة ويرتكز البناء الحضاريّ على شبكة قويّة من العلاقات حيث ينتظم وفقها نشاط عالم الأشخاص؛ ذلك أنّه إذا كان يعتمد في ناحية على قوّة عمل الأشخاص، والأفكار في استغلال مقاييس التّراب والزّمن، فإنّ قوّته تعتمدُ من ناحيةٍ أخرى على حجم العلاقات الدّاخليّة في المجتمع ومتانتها، وإذا كانت ثروة أمّةٍ ما تقاس بغنى مواردها البشريّة والمادّيّة، فإنّ فعّالية هذه الموارد مرتبطةٌ بنوعية شبكة العلاقات الاجتماعيّة ووضعيتها، وقد تمارس شبكة العلاقات الاجتماعيّة دوراً هامّا في حماية النّسيج الفكريّ والاقتصاديّ والحضاريّ ككلّ، وذلك من خلال خاصّية توحيد الأنشطة وتوجيهها لخدمة غاية مشتركة في عالم الأشخاص، فهي بذلك تمارس دور التّنظيم والتّوجيه والحماية على مستوى الإرادة الحضاريّة والإمكان الحضاريّ معاً.

كما أن ارتباط شبكة العلاقات الاجتماعيّة بعوالم البناء الثّقافيّ، لا تحكمه علاقةٌ من طرف واحد، بمعنى أنّ هذا التّأثير لا يكون من جانب واحد فقط، بل تحكُمُه علاقة تأثير وتأثُّر متبادلة، وإنّنا وفي مثل الظّروف الّتي تمرّ بها، فنحن بأمسّ الحاجة إلى تبنّي هذا المنهج، خصوصاً إذا تعلّق الأمر بقضايانا الاجتماعيّة، والتّربويّة والتّنمويّة على العموم وأنّ التخلي عن هذا المنهج يؤدّي إلى تبنّي حلول عرجاء، تَنتُجُ عنها نتائج عرجاء، تؤثّر على سلامة النّظام الاجتماعيّ، والتّربويّ، والتّنمويّ ككلّ، ليدفع ضريبة هذه الحلول الترقيعية المواطن البسيط[14]، وعن أهمية شبكة العلاقات الاجتماعية على المستوى الواقعيّ فقد إقترنها "مالك بن نبي" بالأحداث التي شهدها الواقع العربيّ والإسلاميّ، في ظلّ التّراجع الخطير لعلاقاتنا الدبلوماسية مع الغرب، فإنّه من الواجب أن نعيد ترميم هذه العلاقات، قبل الخوض في أيّ مشروع تنمويّ؛ فالإصلاح الإقتصاديّ لن يجدي نفعاً، إذا لم يسبقه الإعداد لأرضيّةٍ اجتماعية صلبةٍ، تحوي هذا الإصلاح، وتهيّئ له المناخ الصّحيّ لإقلاعه، وإنّ إغفال هذه المرحلة أو التّغاضي عنها يقود إلى استنزاف الإمكانيات الاقتصاديّة، والاجتماعيّة لدولنا، بسبب تضارب المصالح وتباين الأهداف، الأمر الّذي يؤدّي في الأخير إلى تشتّت الجهود، وبالتّالي ضياعها هذا إن لم تكن هذه الإمكانيات مستغلّة لصالح أطراف، يناسبها أن تبقى الأوضاع على ما هي عليه، ولنا في التّاريخ والواقع أعظم الدّلائل، فصدقت يا أيها المفكر العظيم حينما قلت لا يقاس غنى المجتمع بكمية ما يملك من أشياء، بل بمقدار ما فيه من أفكار فالعلاقات الاجتماعية

تكون فاسدة عندما تصاب الذوات بالتضخم فيصبح العمل الجماعي المشترك صعبًا أو مستحيلاً، إذ يدور النقاش حينئذ لا لإيجاد حلول للمشكلات، بل للعثور على أدلة وبراهين[15]

المبحث الثاني:–الفكرة الدينية ودورها في عملية البناء الحضاري عند "مالك بن نبي":

في المبحث الثاني نتطرق إلى أهمية الفكرة الدينية في تعزيز وتقوية البناء الحضـــاري باعتبار أن الدين يمثل أحد الركائز التي يبني عليها الإنسـان المسـلم شـخصـيته كما يمثل ثابت من ثوابت الشـخصـية الإنسـانية، بل وأنّ الدين كان وراء كل الإنجازات البشرية وقد توصل "مالك بن نبي" إلى تأكيد أنّ السّر الكوني الذي يركّب العناصر الثلاثة الأساسية للحضارة؛ الإنسان والتراب والوقت، والذي يبعثها القوة الفاعلة في التاريخ هو الدين

المطلب الأول:الفكرة الدينية ،من ثوابت الشخصية الإنسانية إلى إرساء قواعد الفكر الحضاري.

يرى "مالك بن نبي" أنّنا حينما نتأمل القرآن يبدو هذا الدين ظاهرة كونية تحكم فكر الإنسـان وحضـارته، كما تحكم الجاذبيةُ المادةَ، وتتحكم في تطورها. والدين على هذا يبدو وكأنه مطبوع لنظام الكوني، قانونًا خاصًـا بالفكر، الذي يطوف في مدارات مختلفة، فهو قانون من قوانين الله عز وجل التي فُطرت عليها النفس الإنسانية.. وهو فضـلاً عن أنّه يغذي الجذور النفسـية العامة، فإنّه يتدخل مباشـرة في العناصـر الشـخصـية التي تكوّن الأنا الواعية في الفرد، وفي تنظيم الطاقة الحيوية التي تصـنعها الغرائز في خدمة الإنسـان،ثم يرجع "بن نبي3 إلى شـهادة التاريخ باعتباره السجل الأمين للتحوّلات التي شهدتها البشرية، فيجد أنَ التاريخ شاهد على أن الدين يمثل أحد الركائز التي يبني عليها الإنسان المسلم شخصيته كما يمثل ثابت من ثوابت الشخصية الإنسانية، بل وأنّ الدين كان وراء كل الإنجازات البشـــرية، ولهذا فابن نبي انتقد نظرية توينبي في التحدي والإســـتجابة، لأنّها حتى وإن فســـرت قيام بعض الحضـــارات فإنّها لم تفســـر لنا دور الفكرة الدينية في بنائها وقيامها، ويقدّم الدين بديلاً لقيام الحضـارات ومنجزاتها عبر التاريخ، حيث نجد "مالك بن نبي" يقول: (كلّما أوغل المرء في الماضـي التاريخي، وفي الأحقاب الزاهرة لحضارته، أو في المراحل البدائية، وجد سطورًا من الفكرة الدينية حيث أنَ الحضـــــــارات ما أشـــرقت إلا من أمثـــال الكعبة أو معبد سليمان، ومن هناك كانت تشرق هذه الحضارات لكي تنير العالم.) [16]، فابن نبي لا يرى الفكرة الدينية نسـقًا من الأفكار الغيبية فحسـب ولا يقصـرها على الدين السـماوي فقط، بل يعتبره قانوناً يحكم فكر الإنسان، فبتحليله لدورتين من دورات الحضارة؛ هما الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية توصل إلى استخراج السر الذي دفع بكلتا الحضارتين إلى تحديد الموقع الذي يمثله الدين في حركة الحضارة. حيث توصـل إلى تأكيد أنّ السّر الكوني الذي يركّب العناصر الثلاثة الأسـاسية للحضـارة؛ الإنسـان والتراب والوقت، والذي يبعثها القوة الفاعلة في التاريخ هو الدين، لأن كلتا الحضـــارتين تنطلقان من الفكرة الدينية التي تطبع الفرد بطابعها الخاص، وتوجهه نحو غايات ســـامية إلا أنّ هذا القانون لا نجده في الحضـــارتين: الإســـلامية والغربية فحســـب، بل يتعداه إلى بقية الحضـــارات التي ســـجلها تاريخ الإنســـانية، كالديانة البوذية في الحضـــارة البوذية، والبرهمية مما يفسر لنا أن كل حضارة في أساسها ذات مبعث ديني. ولا يمكن للحضارة أن تظهر في نظر "ابن نبي3 إلا (في صورة وحي يهبط من السماء، وعلى هذا فالحضارة تبدأ عندما يمتد نظر الإنسان إلى الأفق .

ومن هنا ينبغي علينا أن نتتبع تأثير الدين من خلال تركيبه بين العبقرية الإنسانية والشروط الأولية للحضارة، أي نتتبع ذلك (الإطراد بين الفرد والفكرة الدينية التي تبعث الحركة والنشاط)[17]، فالفكرة الدينية في عمومها أساس لكلّ مشروع حضاري، يقول ابن نبي: " فالحضارة لاتبعث- كما هو ملاحظ- إلا بالعقيدة الدينية، وينبغي أن نبحث في حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها، ولعله ليس من الغلو في شيء أن يجد التاريخ في البوذية بذور الحضارة البوذية، وفي البرهمية نواة الحضارة البرهمية، فالحضارة لاتظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء يكون للناس شرعة ومنهاجا، [18]ولقد كانت قناعة ابن نبي في الدين الإسلامي على الخصوص، على أنّه يملك من المقومات ما يغير به حياة الفرد وحياة المجتمع، كما أنّه يحمل من جهة أخرى مقومات وجوده واستمراريته، ولقد كانت عناصر الحضارة في جزيرة العرب "الإنسان والتراب والوقت " راكدة خامدة، وبعبارة أصح مكدسة لا تؤدى دورا ما في التاريخ، حتى إذا ما تجلت الروح بغار حراء- كما تجلت من قبل بالواد المقدس أو بمياه الأردن- نشأت من بين هذه العناصر الثلاثة المكدسة حضارة جديدة فكأنما ولدتها كلمة (اقرأ)، هذه الكلمة التي غيرت مجرى التاريخ، وتميز بها الدين الإسلامي عن غيره من الأديان السماوية، " فبينما يفتح في الغرب كتاب العهد الجديد في إنجيل يوحي لنا بعملية التجسيد فإنّنا نجد عندنا القرآن ينفتح على الجانب العقلي في قوله تعالى: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ".[19] (اقرأ) هذه هي الكلمة الأولى التي تفتح إليها أول ضمير إسلامي، ضمير محمد، ويتفتح لها بعده كل ضمير مسلم"[20]، ويفهم من ذلك أن الأمر الإلهي (صورة الآية)، أمر بالتغيير، ومن هنا كان منهج الرسالة الإسلامية مقتضياً للتغيير، والتغيير يستلزم تغيير ما بالنفس أوّلا، وهذه المسؤولية الفردية وإن كان أساسها ذات الإنسان كفرد، إلا أنها تحتم من ناحية أخرى تغيير المجتمع أو ما سماه القرآن بالقوم في قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ).[21]هذه الآية الكريمة الصادقة التي يتّخذها (مالك بن نبي) وكذلك رجال الإصلاح شعارا لهم، تعبر عن أهمية وضرورة أن يبدأ التغيير من الإنسان الفرد ثم يأتي فعل الله تعالى في التغيير، ومن هنا تظهر القيمة القرآنية لا على أساس أنها آية يتعبد بها وتحفظ عن ظهر قلب دون أن تمس القلب، بل قيمتها في كونها محركة للحياة وباعثة للنشاط ومغيرة للإنسان، ولكن لن تكون كذلك إلا إذا وجدت من يجعلها آية حية تملى على الفرد تصوراً جديداً لعبوديته لله تعالى، وتملى عليه سلوكا جديدا ثم تجذبه إلى الحياة، فإذا وهنت الدفعة القرآنية توقف العالم الإسلامي كما يتوقف المحرك عندما يستنفد آخر قطرة من الوقود.ولا يمكن لأيّ عامل مهما كانت أهميته أن يقوم مقام الدين لأنّه المنبع الوحيد للطاقة الإنسانية، [22].

-دورها في خلق التوازن النفسي:

يرى "مالك بن نبي" أنّه عند دراستنا للحضارة الإسلامية لا بدّ أن نخضعها لعاملين أساسيين هما:الفكرة الإسلامية والإنسان المسلم .الذي يمثل السند المحسوس لهذه الفكرة لأن كل القيم النفسية الزمنية التي **تميّز** مستوي حضارة ما وفي وقت معين، ما هي إلا ترجمة تاريخية لهذه العلاقة العضوية بين فكرة معينة كالإسلام مثلا، والفرد الذي يمثل بالنسبة إليها السند المحسوس وهو المسلم، ولتوضيح الفكرة أكثر نلجأ إلى لغة التحليل النفسي بغية تتبع إطراد الحضارة باعتبارها صورة زمنية للأفعال وردود الأفعال المتبادلة بين الفرد والفكرة الدينية، فالإنسان يولد مع

جميع غرائزه وهو ما نسميه بالإنسان الطبيعي أو الفطري l'homonoatuna غير أنَ الفكرة سوف تتولى إخضاع غرائزها إلى عملية شرطية conditionnement وهذه العملية الشرطية لم تقض نهائيا على الغرائز، ولكنها تولت تنظيمها في علاقة وظيفية مع مقتضيات الفكرة الدينية، فالحيوية الحيوانية التي تمثلها الغرائز لم تلغ، ولكنها انضبطت بقواعد نظام الفكرة الدينية، ففي هذه الحالة يتحرر الفرد جزئيا بالإمكان الطبيعة المفطور في جسده ويخضع وجوده إلى المقتضيات الروحية التي طبعتها الفكرة الدينية في نفسه بحيث يمارس حياته في هذه الحالة الجديدة حسب قانون الروح، ذلك هو الطور الأول من أطوار الحضارة الإسلامية، وهو الطور الذي تكبح فيه الغرائز وهذا بسيطرة الروح عليها [23]، ولكون المجتمع متحرك فإنه يشهد توسيعاً في مختلف الأنشطة وهو ما يستدعي وجود متطلبات كثيرة وأساسية لا بدّ من إرضائها، وهو ما يتحتم على الحضارة أن تسلك منعطفاً جديداً وأن تختار بين طريقين لا ثالث لهما، فإمّا أن تتطابق مع النهضة كما رأيناها بالنسبة للدورة الأوروبية، وإمّا أن تأخذ بسياسة الأمويين [24]، كما هو شأن الدورة الإسلامية وفي كلتا الحالتين فإنَ المنعطف الذي تسلكه الحضارة هو منعطف العقل، غير أنّ هذا العقل لا يملك قدرة السيطرة على الغرائز وحينئذ تشرع الغرائز في الظهور والتحرّر من قيودها وبذلك يكون المجتمع قد فقد سيطرته على ممارسة ضغطه على الفرد وكلّما ضعفت سلطة الروح تحرّرت سلطة الغرائز [25] ولو تتبعنا بدقة هذا الاطراد يمكننا أن نلاحظ إنحفاظاً في مستوى أخلاق المجتمع وهو ما يؤدي إلي نقص في الفعالية الإجتماعية للفكرة الدينية، حيث أنها تبدأ بالتدنّي منذ أن دخلت الحضارة منعطف العقل وبهذا تواصل الغريزة المكبوحة سعيها إلى التحرّر والإنطلاق، وعندما يبلغ هذا التحرّر أوجه يبدأ الطور الثالث من أطوار الحضارة، وهو طور الغريزة التي تكشف عن وجهها.

وهنا تنتهي الوظيفة الإجتماعية للفكرة الدينية التي تصبح عاجزة عن القيام بمهمتها في مجتمع منحل يكون قد دخل نهائياً في ليل التاريخ، وبذلك تتم دورة الحضارة التي غالباً ما تنتهي دورتها إلى مرحلة الفوضى يعيش أصحابها على حساب الجهل المنتشر، فدورة الحضارة تتم على هذا المنوال:حيث أنها تبدأ حينما تدخل إلى التاريخ فكرة دينية وتنتهي حينما تفقد الروح نهائيا الهيمنة على الغرائز المكبوتة فقبل بداية دورة الحضارة يكون الإنسان في حالة سابقة للحضارة، أما في نهاية الدورة فإن الإنسان يكون قد تفسخ حضارياً وسلبت منه الحضارة تماما فيدخل في عصر ما بعد الحضارة[26]، فإذا كان ممكنا المماثلة بين هاتين الحالتين من وجهة نظر سطحية لما فيهما من وجوه الشبه الظاهرية، فإنَه من الخطأ المماثلة بينهما ذلك أن الإنسان الذي تفسخ حضارياً يختلف تماما للإنسان السابق عن الحضارة أو الإنسان الفطري، لأنَ الإنسان الذي خرج من حضارته لم يعد قابلاً لإنجاز عمل فيه تحضرّ، إلّا إذا غيّر ومن الأساس نفسه، عكس الإنسان السابق على الحضارة يظل مستعداً للدخول في دورة الحضارة، ولتوضيح الفكرة أكثر لدينا مثلا (جزيئا) من الماء في وضعيتين مختلفتين، الوضعية الأولى: قبل دخوله الخزان يكون مشبع بطاقة مدخرة فيه قابلة لتأدية عمل نافع إذا ما استعملتها أجهزة الخزان في الري—معناه السقي- أو في إنتاج الكهرباء فهذا يعطينا صورة للإنسان السابق عن الحضارة.غير أنّ هذا الجزئ يعجز عن تأدية العمل نفسه منذ خروجه من الخزان لأنه فقد طاقته المذخورة ولم يعد بإمكانه أن يستعيد حالته إلا بواسطة عملية جوهرية تتمثل في

عملية التبخر التي ترجعه إلى أصله، حيث يتم تحويله من جديد إلى جزئ مائي وهو ما يعطينا صورة للإنسان الذي خرج من دورة الحضارة [27].

المطلب الثاني: دور العقيدة في إعادة بعث الروح الإنسانية وتكوين مجتمع موحد ومتماسك

1:دور العقيدة في إعادة بعث الروح الإنسانية:

فبعدما تبين لنا مدي أهمية الفكرة الدينية في بناء الحضـــارة القائمة على أســـاس منطقي وواقعي هنا نجده ("مالك بن نبي")يوضـــح لنا أهمية الفكرة الدينية (في بناء الحضـــارة) من الناحية التاريخية، ولعل الإهتمام بهذا الجانب والتركيز عليه يبيّن ما مدي أهمية العقيدة الإســـلامية ودورها الفعال في إعادة تركيب بنية الفرد المســـلم، فحسـب "مالك بن نبي" فإنَ العوامل المادية الثلاثة (الإنسـان- الوقت-التراب) التي أشـرنا إليها فيما سـبق هي عوامل بناء الحضـارة، غير أنها لا تكتمل ولا تتطور إلا بالعقيدة الدينية، [28] ولتوضـيح الفكرة أكثر نضـرب المثال التالي:فجزيرة العرب مثلا قبل نزول القرآن يسـكنها شـعب بدّوي يعيش في صـحراء جرداء قاحلة يقضـي سـكانها معظم أوقاتهم في اللهو والخمول والكســل (بما لا ينتفع به) لذلك كانت العوامل الثلاثة:الإنســان والتراب والوقت راكدة خاملة فهي لم تؤد دورا في التاريخ، حتى نزل الوحي بغار حراء حيث أعاد الحياة والروح للإنســـان، وأثارت كلمة الوحي –إقرأ- المعالم الجديدة.فمنذ تلك اللحظة فرضـت القبائل العربية نفسـها على مسـرح التاريخ حيث ظلّت قرونا طوالا تحمل للعالم حضـــارة جديدة قادته إلى التمدن والرقي، وما هو مثير للإندهاش هو أنّ هذه الوثبة لم تكن من صنع السياسيين ولا العلماء، بل كانت من صنع أناس لا يزالون في بداوتهم يتسمون بالبساطة، غير أن بصـيرتهم توجهت إلى ما وراء أفق الأرض حيث تحول هؤلاء الرجال البسـطاء إلى دعاة إسـلاميين عندما مسـتهم شرارة الروح التي تمثلت خلاصتها في قيام حضارة جديدة حيث نقلت من علوم الأولين ما يخدمها وأدخلت علوما جديدة حتى بلغت درجة قصـــوى من الرقيّ والإزدهار وهي حضـــارات أنتجتها دمشـــق وبغداد وقرطبة وسمرقند وبالمقابل لم يكن حظ الحضارة المسيحية في نفوس أهلها وبيئتها كحظ الحضارة الإسلامية، فقد نشأت المسيحية في وسـط من الخليط بين الديانات والثقافات العبرية والرومانية واليونانية، فلم تسـتطع أن تدخل إلى قلوب الناس وسط الزحام الفكري والثقافي ولم يكتب لها أن تعمل عملها مثلما قامت به الحضارة الإسلامية .

كل هذا يعود إلى قوة الإيمان والعقيدة التي لم تزعزعها أية ديانة. فحسب "مالك بن نبي" لكي نتوصل إلى إيجاد حل للمشكلة الإسلامية وجب أن يتوفر لدينا الوازع الديني الذي يغير النفس الإسلامية لأنَ الدين كما يقول كسـرلنج "الدين يمنح للنفس مبدأ الشـعور"فقوة التركيب لعناصـر الحضـارة خالدة في جوهر الدين لأنه عامل مؤثر صـالح في كل زمان ومكان كما أنَه (الدين) الوحيد الذي يمنح للإنسـان قوة بدنه وروحه والتاريخ الإسـلامي يفتخر بهولاء الرجال اللذين إمتازوا بقوة العقيدة والروح، وإلا فكيف نفسـر التعذيب الشـديد الذي تعرض إليه الصـحابي "بلال بن رباح" وكذلك معاناة الصـحابي "عمار بن ياسـر" حيث كان يحمل حجرين على كاهله في بناء مسـجد المدينة في الوقت الذي كان ثقل الحجر الواحد يعادل مجهود شـخصـين، ففي هذه الحالة نسـتنتج أن قوة الإيمان التي إمتاز بها هؤلاء الرجال هي التي مهدت الطريق إلى حضارة[29].

2:دور العقيدة في تكوين مجتمع موحد ومتماسك:

للدّين في ضوء القرآن غايتان، ففي قوله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [30]، فهذه الآية تبين لنا أن غاية الدين هي ربط الأرض بالسماء، وهذا عن طريق وجود الشبكة الروحية التي تربط الفرد والمجتمع بالله، ففي الوقت نفسه يبني شبكة العلاقات الاجتماعية التي تتيح لهذا المجتمع أن يؤدي مهمته في الأرض والذي يكمن في العبادة، وهو بذلك يربط أهداف السماء بضرورات الأرض، ومن خلال هذه الآية أراد "بن نبي" أن يفتح آفاقاً أوسع للإنسان حينما ربطه بأبعاد السماء، رفع بصره إلى ما بعد حياته الدنيوية ففي نظره هناك غايتان للدين، أولاهما ربط الصلة بالله، وثانيهما بناء شبكة العلاقات الاجتماعية التي تدخل المجتمع في دائرة الحضارة. باعتباره يبحث عن القوانين التي تحكم التغيير الاجتماعي، وينظر في شروط البناء الحضاري، وقد ركز "مالك بن نبي" على الوظيفة الاجتماعية للدين، معتمدًا في ذلك على الاعتبارات النفسية والاجتماعية بالإضافة إلى الاعتبارات التاريخية، فهو يختبر هذه الوظيفة من ناحيتين؛ من ناحية تسجيل الفكرة الدينية في النفوس، ومن ناحية تسجيل الفكرة الدينية في التاريخ، وهو ما بينه في كتابه (شروط النهضة) وهذا الاختبار لعمل الفكرة الدينية، هو الذي جعله يختار في دراسته دورتين حضاريتين مختلفتين، هما؛ دورة الحضارة الإسلامية، ودورة الحضارة الغربية، فمن الناحية النفسية الاجتماعية فإنه يتبع بالتحليل والتركيب كيفية دخول الفكرة الدينية في بناء الشخصية الإنسانية[31] ، وهذا (برنال) في كتابه (العلم في التاريخ عندما تحدث عن حركة الإصلاح البروتستانتي حيث قال كانت الحركات التي قضت على الإقطاع والنفوذ الكنسي هي نفسها التي قضت على العبودية والأنظمة المتخلفة المتوارثة، وكما في السياسة كذلك في العلم حدثت ثورة على التقاليد، التي حرّرت عقل الإنسان وأخرجته من الدائرة الضيقة التي كان مسجونًا فيها وهذا هو الدور الذي كان بن نبي يقصد من ورائه بقوله إن الفكرة المسيحية شكلت أنا الأوروبي أو ذاته، كما صاغت منظر أوروبا الذي شهدته في منتصف هذا القرن .وكانت الفكرة الدينية المشكِّل الأول للفردية الأوروبية، والأنا المتفوق الذي كان يشعر به الغربي في بداية حملة توسعاته الاستعمارية عبر العالم، بل إن المسيحية كانت الفكرة الوحيدة، والدافع الأخلاقي الذي وظفته أوروبا لغزو العالم، ويستشهد "بن نبي" بالتفسير الذي ذهب إليه (كسرلنج) الذي رأى بأن الحضارة الغربية الأوروبية باعتبارها تركيبًا مكونًا من روح المسيحية وتقاليد الجرمانية. ولهذا فقد أكّد "ابن نبي" على أن المسيحية كانت المفعِّل الأول لشروط الحضارة الأولية في الغرب [32]. وبما أن الدين سنة مرتبطة بالوجود الإنساني، فإن الفكرة الدينية تبقى تعمل، وتقوم بدورها الاجتماعي ما دامت متمسكة بقيمتها الثابتة، وعندما تفقد هذه القيمة فإنها تترك مكانها، أو تعمل بواسطة بديلاتها اللادينية نفسها، وهذا فعلا ما حدث في الغرب، عندما لم تعد المسيحية تملك بعدًا دينياً متماسكًا، وأنتجت المادية الماركسية، وانطلاقاً مما سبق فإننا نجد المفكر "مالك بن نبي" قد إستعمل مفهوم الدين باعتباره تلك السنة التي فطر الله عليها الإنسان، وأن الدين هو وحده الذي يمثل المركب الحقيقي للقيم الحضارية، لأنه يعطي شرارة الانطلاق الأولى لتدخل الحضارة في التاريخ، وتتحقق في عالم الإنجاز كما وضح لنا أهمية هذه الفكرة وإبراز علاقتها بالنفس كعنصر حضاري من خلال اتخاذه لمنهج التغيير، كأساس للبناء الجديد للإنسان الذي يتماشى مع الروح والعقل والغريزة، "فـ"مالك بن نبي"" نظر بامتياز لمشكلة الإنسان

العالمي، وليس الإنسان العربي المسلم فقط، حيث يمكن إعتبار نظريته الفلسفية الواقعية حلاً فاصلاً بدلا من الفلسفات المادية والعقلانية، بل حتى الفلسفات الوجودية التي تزعمت النزعة الإنسانية، كما يمكن اعتبارها رداً بناء على أصحاب الفلسفات المعاصرة أمثال: (فرويد، ماركس، ماركيوز...وغيرهم)، والتي حاولت بناءا الإنسان في جانب واحد فقط سواء أكان هذا الجانب مادياً أو عقلياً أو غريزياً أو ما سواه، وحقيقة المشكلة هنا أن هؤلاء حاولوا دراسة الإنسان بمناهج لا تتماشى والطبيعة الإنسانية؛ وبالرغم من أنّ البداية كانت غربية في تجاوز هذا المشكل مع كل من "هوسرل وكيركيكورد هيدغر ومرلوبونتي وسارتر...الخ "، إلا أنَ التنظير كان بعيداً عن الرؤية الشمولية التي اتسمت بها الرؤية العميقة "ل"مالك بن نبي"" فقيه الحضارتين الغربية والعربية، والمؤسس لنظريته على منهاج إسلامي أصيل أدرك من خلاله نقائص التنظير العربي والغربي في تناول أزمة الإنسان والمجتمع والأمة[33].

الخاتمة :

من خلال هذه الورقة البحثية توصلنا إلى أدراك مدي أهمية التمسك بفكرة الدين روحيا وليس شكليا لذ سمي مالك بن نبي المرحة الأولى في التطور الحضاري بمرحلة الروح، ولهذا فمن دون الحضارة لا يصير الإنسان محصنا في حياته ومصيره، ، ويصبح مهدد في شخصيته الفردية والوطنية والدينية، فالإنسان الذي لا يكون مجتمعه مجتمع حضارة فهو معرّض للزوال والفناء مثلما حدث لبعض الأمم التي أنهارت كليا ،وفي هذا المعني يقول :فأنا حينما أحاول تحديد مجتمع أفضل فكأنني أحاول تحديد أسلوب حضارة، إذ أنني حينما أحقق الحضارة، أحقق جميع شروط الحياة، والأسباب التي تأتي بمتوسط الدخل المرتفع، بمعنى أنني أحقق الخريطة الاقتصادية ونتائجها الاجتماعية والثقافية أيضا". فالحضارة الإسلامية العريقة فقد أقامت بدخول الروح القرآنية فألّفت بين عناصر التحضر، وانتقل على إثرها الإنسان العربي من حياة البادية القائمة على الترحال والبساطة إلى دولة إسلامية قوية جدا بعدتها وعددها عسكريا واقتصاديا وفكريا، قائدها سيّد الخلق "محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم"، وبهذا المثال تتجلّى الرسالة الروحية للحضارة، فالحضارة تقوم حينما يدخل الإنسان التاريخ بفكرة دينية تحدد المبدأ والمسار والمصير، وهي رسالة أرادها ""مالك بن نبي"" أن تكون لدى الإنسان المسلم كما يلي: "إذا أراد المسلم أن يسد هذا الفراغ في النفوس المتعطشة، النّفوس المنتظرة لمبررات جديدة فيجب أوّلا أن يرفع مستواه إلى مستوى الحضارة أو أعلى منها كي يرفع الحضارة بذلك إلى قداسة الوجود، ولا قداسة لهذا الوجود إلاّ بوجود الله، والمسلم إذا أتى بهذا لا بلسانه ولا بشطحاته الصوفية وإنّما كإنسان معاصر .

كما توصلنا كذلك إلى استنتاج آخر حول الحضارة هو أن رسالة الحضارة في أبعادها المختلفة، فهي بالنسبة للإنسان ترفعه فوق المخلوقات الأخرى وتضمن له إنسانيته وتميّزه عن التوحش والهمجية، وهي بالنسبة للفرد توفر له كل ما يحتاج إليه في كل طور من أطوار حياته، أما بالنسبة للمجتمع فهي تخرجه من دائرة التجمعات الإنسانية وتدخله في التاريخ لتبنيه وتصنع تطوّره بما يحقق التوازن بين الجانب المادي والجانب الروحي في حياة الإنسان، ويحصل التوازن والإنسجام بين الجانب الدنيوي والجانب الأخروي في إطار مسار يربط بين المبدأ والوسيلة والغاية في تكامل تام.

المصادر والمراجع:

1. سورة الصف، الأية 4
2. سورة العلق، الأية 1
3. سورة الرعد- الاية 11.
4. سورة الذريات الأية 56
5. سليمان الخطيب ، فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي: دراسة إسلامية في ضوء الواقع المعاصر: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت ، ط1، 1993، ص 99
6. مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي،دار الفكر ، ط1، دمشق، سوريا، 1992، ص83.
7. مالك بن نبي: ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية،دار الفكر،ط8، دمشق ، سوريا، 2010، ص5855
8. مالك بن نبي: شروط النهضة:ص 70/69. وأنظر أيضا عباس محمود العقاد عبقرية الإمام – البيعة- دار المعارف بمصر بدون تاريخل
9. مالك بن نبي- حديث في البناء الجديد، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، بدون تاريخ، ص 100-101
10. موسي لحرش:مالك بن نبي:حياته وانتاجه الفكري (مجلة مالك بن نبي)جامعة الامير عبد القادر ، قسنطينة، الجزائر جويلية 2006. ص 20.
11. عائشة المناعي، مظاهر التجديد في فكر مالك بن نبي:مجلة المسلم المعاصر بقلم عبد الحميد الادريسي العدد 101، سبتمبر 1، 2000 ، ص 18
12. مالك بن نبي: انتاج المستشرقين- مكتبة عمار- القاهرة- 1970م- ص 42.
13. مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، دار الفكر، ط4، 2008، ص: 71

الهوامش:

1-مالك بن نبي :شروط النهضة ص 69.

2-مالك بن نبي : شروط النهضة ، ص 70.

3-فرانز شوبرت:31/01/1797-19/11/1828 ' franz peter schubert. مؤلف وموسيقي نمساوي، رغم رحيله المبكرجدا في سن 31.الا انه قام بتاليف اكثر من 100 مقطوعة موسيقية ويعتبر الكثيرون بعض اعماله من افضل المقطوعات في تاريخ الموسيقي

4-نفس المصدر ص 74/72

5--د/ سليمان الخطيب ، فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي: دراسة إسلامية في ضوء الواقع المعاصر: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت ، ط1، 1993)، ص 99

1-مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص83.

7-مالك بن نبي: ميلاد مجتمع شكبة العلاقات الاجتماعية، ص5855

8--سورة الصف، الأية 4

9-مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص7877

10-/مالك بن نبي: شروط النهضة:ص 70/69. وأنظر أيضا عباس محمود العقاد عبقرية الإمام – البيعة- دار المعارف بمصر بدون تاريخل

-11-- مالك بن نبي- حديث في البناء الجديد، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، بدون تاريخ، ص 100-101

12--مالك بن نبي:شروط النهضة':ص 71/ 74/73

13-مالك بن نبي :ميلاد مجتمع، (شبكة العلاقات الاجتماعية) ص136

14-موسي لحرش:مالك بن نبي:حياته وانتاجه الفكري (مجلة مالك بن نبي)جامعة الامير عبد القادر ، قسنطينة، الجزائر جويلية 2006. ص 20.

15-مالك بن نبي:ميلاد مجتمع، ص 144/140/139

16-مالك بن نبي: شروط النهضة ص 48

17--د: عائشة المناعي مضاهر التجديد في فكر مالك بن نبي:مجلة المسلم المعاصر بقلم عبد الحميد الادريسي العدد 101 سبتمبر 1 200 ص 18.

18-شروط النهضة- مصدر سابق- ص 50- 51.

19-سورة العلق، الأية 1

20-مالك بن نبي انتاج المستشرقين- مكتبة عمار- القاهرة- 970 1م- ص 42.

21--سورة الرعد- الاية 11.

22-نفس المصدر السابق ص74

23-نفس المصدر ص 75

24-الأمويين نسبة إلى العصر الأموي وهو عصر الصراعات والإنشقاقات السياسية الخطيرة حول مشكلة الخلافة حيث شهد هذا العصر الصراع الدموي بين أنصار الإمام علي ومعاوية بن أبي صفيان حول السلطة، وقد انتهت الحرب لصالح معاوية وهو مالم يتقبله أنصار الإمام علي

25-مالك بن نبي:شروط النهضة:ص76

26-مالك بن نبي : شروط النهضة ، ص 78/77

27-مالك بن نبي :شروط النهضة ، ص 79

28-نفس المصدر السابق، ص 56/48

29- مالك بن نبي : شروط النهضة: ص 66/64.

30-سورة الذريات الأية 56

31-مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص: 71

32-مالك بن نبي –شروط النهضة ص56.

33-د-عائشة المناعي:مظاهر التجديد في فكر بن نبي، مجلة المسلم المعاصر العدد 101.سبتمبر 2001.القاهرة ص 43